حكمةُ الابتلاء
قبسات نورانية من (نهج البلاغة)

د. محمد علي القاضي*

يؤكّد أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في موارد كثيرة من خُطبه وكُتبه على قانون الابتلاء والاختبار، ويذكر أن الدنيا مقدّرة منذ القدم على هذا القانون، فإنّه عليه السلام بعد ما يذكر هبوط آدم عليه السلام من الجنة يقول: «وأَهْبَطَه إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ»، حيث يشير عليه السلام إلى أن الدنيا محفوفة بالبلاء من الأوّل. وهذا المفهوم يكرّره أمير المؤمنين عليه السلام ويؤكّده، فيقول بعد ما يوصي بالتقوى في الدنيا: «فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ودَارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ومُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا».

كما أنه عليه السلام لترسيخ هذا المفهوم يستشهد بالقرآن أيضاً، ويقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، ولَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾».

وقال عليه السلام أيضاً: «فَإِنَّ الله سُبْحَانَه يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ..﴾، ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّه سُبحانه يَخْتَبِرُهُمْ، بِالأَمْوَالِ والأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِه، والرَّاضِيَ بِقِسْمِه».

ثمّ إنه عليه السلام استفاد من هذا المفهوم لموعظة الناس، وإيقاظهم من نوم الغفلة وعدم الركون إلى الدنيا، فهو عليه السّلام يصفُ الدنيا باشتمالها على أنواع البلايا ليزهّدَ الناس فيها، ويقول: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ... وإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا».

وقال عليه السلام: «لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ، إِلَّا أَعْقَبَتْه بَعْدَهَا عَبْرَةً، ولَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْه مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، ولَمْ تَطُلَّه فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْه مُزْنَةُ بَلَاءٍ».

يقول عليه السلام ما معناه: إنّ الدنيا لم تُمطر عليه من الرخاء قليلاً، إلا وَهَتَنَتْ – أي مطرت عليه – من البلاء كثيراً.

وقال عليه السلام: «وأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ، إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْه مِنَ النَّعْمَاءِ والِابْتِلَاءِ»، حيث يشير عليه السلام إلى التقدير الإلهي باحتواء الدنيا على أنواع البلاء.

وقال عليه السلام: «واعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ، لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً، إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُه عَلَيْه حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقال عليه السلام في كتابه لمعاوية: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله سُبْحَانَه قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، ولَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا ولَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا».

وأخيراً فإن الدنيا نفسها تحذّر من نفسها، يقول عليه السلام: «ولَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، والنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ».

الابتلاء بوصفه حكمة ربّانية

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ الملك:٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ..﴾ سورة محمد:٣١.

وقال تعالى عن لسان صاحب سليمان عليه السلام بعدما نقل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ الطَّرْف: ﴿..هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..﴾ النمل:٤٠.

فهذه الآيات تدل بوضوح على أنّ مسألة الابتلاء لم تكن جزافاً وعبثاً، بل تبتني على حكمة ربانيّة، كما وردت الإشارة إلى جملة منها في الآيات القرآنية.

وحين نراجع (نهج البلاغة)، نرى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يذكر مجموعة من الحكم الكامنة وراء مسألة الابتلاء، منها:

١) مسألة الإثابة، واستحقاق الأجْر، والمنزلة عند الله، حيث لا تأتي المثوبة اعتباطاً بل استحقاقاً، قال عليه السلام:

«أَلَا إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لَا أَنَّه جَهِلَ مَا أَخْفَوْه مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ، ومَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، ولَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً والْعِقَابُ بَوَاءً».

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿..إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سورة محمد:٧، وفي قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الحديد:١١. قال عليه السلام:

* أكاديمي وباحث في الدراسات الإسلامية – العراق

«فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، ولَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ ولَه جُنُودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، واسْتَقْرَضَكُمْ ولَه خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ ﴿..أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا..﴾».

وقال عليه السلام في حكمة كون الأنبياء أهل مسكَنَة وفقرٍ ماديّ: «ولَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَه لأَنْبِيَائِه (بأنبيائه)، حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، ومَعَادِنَ الْعِقْيَانِ ومَغَارِسَ الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ووُحُوشَ الأَرَضِينَ، لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، ولَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ... وكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى والِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

ثمّ يستمرّ عليه السلام ويذكر الحجّ وصعوبته، ويقول:

«.. ابْتِلَاءً عَظِيماً وامْتِحَاناً شَدِيداً، واخْتِبَاراً مُبِيناً وتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَه اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِه ووُصْلَةً إِلَى جَنَّتِه، ولَوْ أَرَادَ سُبْحَانَه، أَنْ يَضَعَ بَيْتَه الْحَرَامَ ومَشَاعِرَه الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وأَنْهَارٍ وسَهْلٍ وقَرَارٍ، جَمَّ الأَشْجَارِ دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ ورَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ وعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، ورِيَاضٍ نَاضِرَةٍ وطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ».

وقال عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَه قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

٢) ومن حِكَم الابتلاء أيضاً دفعُ الكبر عن القلوب، قال عليه السلام:

«ولَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَه يَبْتَلِي خَلْقَه بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَه، تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ ونَفْياً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ».

وقال عليه السلام أيضاً:

«ولَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَه بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِه، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، ولِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِه، وأَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِه».

٣) ومنها التّوبة والرّجوع إلى الله تعالى، قال عليه السلام:

«إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَه عِنْدَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ لِيَتُوبَ تَائِبٌ، ويُقْلِعَ مُقْلِعٌ، ويَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، ويَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ».

٤) ومنها الرضا بقضاء الله تعالى، قال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ..﴾:

«ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّه سُبْحَانَه يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوَالِ والأَوْلَادِ، لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِه، والرَّاضِيَ بِقِسْمِه، وإِنْ كَانَ سُبْحَانَه أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ولَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ والْعِقَابُ».

٥) ومنها الانتفاع بالموعظة، قال عليه السلام:

«ومَنْ لَمْ يَنْفَعْه اللهُ بِالْبَلَاءِ والتَّجَارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وأَتَاه التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِه».

أعاذ اللّه بني آدم من أن يجور عليهم، ولم يُعذبهم من الاختبار والامتحان

من حِكم الابتلاء الربانيّ استحقاقُ المثوبة، والحثُّ على الإنابة، والانتفاعُ بالموعظة

الإسلام في نظر الاستشراق المستَحدث

محمود حيدر*

لمّا وضع المؤرّخ وعالم الاجتماع الفرنسي مكسيم رودنسون كتابه المعروف (جاذبيّة الإسلام) في ستينيّات القرن الفائت وجد كثير من الباحثين في العالم الإسلامي أنّ هذا الآتي من مدارج اليسار الماركسي، شاء أن يحفر سبيلاً معاكِساً لما هو مألوفٌ لدى علماء الاستشراق. وذهب آخرون إلى أنّ الرجل أخذته أبحاثه المفرطة نحو توقّعات «غير معقولة» حول موقعيّة الإسلام الحاسمة في تحديد مستقبل العالم.

يومها لم يُسفر النقاش حول أفكار رودنسون عن نظر جديد للإسلام يعيد رسم خريطة معرفية تغاير الثوابت الإيديولوجية التي ترسّخت في الثقافة الغربية بفعل ما كتبه المستشرقون. لقد لاحظ رودنسون ما لم يلحظُه السواد الأعظم من أهل الاستشراق، أن الحملات الصليبية ليست هي التي أنشأت الصورة الثقافية السلبية عن الإسلام، وإنما كانت الصليبية نفسها هي النتيجة لتلك الصورة. فالإرهاصات الثقافية التي سبقت الحملات الصليبية كانت – حسب رودنسون- وليدة الوحدة الإيديولوجية للعالم المسيحي اللّاتيني التي أدّت بدورها إلى بلورة صورة «العدوّ المسلم»، وإلى توجيه الطاقات نحو الصليبية في الوقت نفسه.

السياق الإجمالي للرؤية الثقافية الغربية لم يتبدّل. فالتحوّلات التي وقعت على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين حتّى يومنا هذا، جاءت لتؤكّد اتّساق الرؤية وتواصلها.

ولَئِن جاءت الأطروحة التي بسطها رودنسون، على نصاب الدهشة المعرفية الإيجابية، فإن ما نجده في الخطاب الثقافي الغربي اليوم حيال الإسلام يتبدّى على نصاب مقلوب. وليست أطروحة «الإسلاموفوبيا» التي شقّت سبيلها بلا هوادة في ثقافة الغرب الأخيرة، إلاّ واحدة من التجلّيات المستأنفة للأيدولوجيا الاستشراقية.

سيرورة لقاء الغرب بالإسلام

مع صرف النظر عن طبيعة هذا التجلّي المستأنف، فإن لنا هنا أن نرى إلى الإسلام كما هو الآن في ميزان الغرب، باعتباره حاضراً وبجاذبية استثنائية في تشكيل خرائط المعرفة العالمية في بدايات القرن الحادي والعشرين.

ولو عدنا إلى أصل القضية، لرأينا الوضعية التالية:

كلّما انعقد الكلام حول ثنائيّة الإسلام والغرب، عاد ما بينهما من اتّصال وانفصال إلى سيرته الأولى. ما من شيء للإسلام على الغرب، أو للغرب على الإسلام، إلاّ رُدَّ إلى مستهلّ الإشكال. أي إلى تلك اللحظة التي أدرك فيها الغرب، بما هو غرب، أن استئناف التاريخ، وإعادة ترتيبه، لا يتحصَّلَ إلاّ بآخر يواجهه، ليحاوره أو يجادله، أو ليهيمن عليه. إنها أيضاً اللحظة نفسها، التي يدرك فيها المسلمون أنهم، على وجه القصد، هم ذلك الآخر. ما كان الأمر يحتاج إلى كثير مشقّة لاختبار مثل هذا الإدراك. الحافظة الجمعية للمسلمين مكتظّة بما لا حصرَ له من الحوادث والوقائع والأخبار. أما أرشيف الغرب فهو مشحونٌ بتيّارات، واستراتيجيّات، وأفكار، لا تنفكّ ترى إلى عالم الإسلام كفضاء مفتوح على تمرينات الاحتلال والسيطرة....

منذ الإرهاصات الأولى لنهضة الغرب، قبل نحو أربعة قرون، أخذت تنمو سيرورة اللقاء بالإسلام. غير أنّ هذه السيرورة طُبعت على غائيّة سالبة من أوّلها. ولقد رأينا كيف ستؤول إلى ضربٍ من لقاء، تَبيّن أنه لن يؤدّى على النحو المرسوم له إلا على أرض الزّيغ، والكمون، ومضمرات الشكّ. كان على الغرب الذي حمل حداثته الفتية لينشرها على الملأ، أن يتّصل بإسلام الشرق اتّصال الغالب بأمره. كأنما قدَر الغرب في حداثته الأولى، ألاّ يرى إلى جغرافيات الإسلام، إلاّ كمتّسعٍ مديدٍ، يزخر بقابليّات التلقّي، والتمثّل، والإخضاع.

في هذه الحقبة يعود الكلام على أطروحة «الإسلام والغرب» إلى نشأته الأولى. وعلى الرغم من تقادم الزمان على تلك الأطروحة، فهي لا تزال حيّةً في ساحات الجدل الفكري والحضاري. تفعل وتنفعل، وترسم وجهَ العالم وحدوده. إنّها أكثر أطروحات الزمن الجديد مثاراً للجدل. لا يعود السببُ في ذلك كلّه إلى سوء الفهم

* باحث في الفلسفة السياسية

المتبادَل بين طرفَي الأطروحة وحسب، بل إن سوء الفهم هو شقيقُ ضديّة حضارية وثقافية، وجدتْ بدايتها الفعلية مع صعود الدولة القومية في الغرب، واستشراء غريزة التوسّع....

لم يكن لجغرافية الإسلام الماثلة في عين الغرب كأمداء مترامية للغزو والانتهاب، إلاّ أن تردَّ الفعل بفعلٍ معاكس. وهو – ردٌّ غالباً ما كان – بحكم ميزان القوّة، وتقنيات السيطرة الجائرة، جواباً ارتدادياً فظيع الأثر. فلسوف يترتّب على الفعل وجوابه الارتدادي أفهام، ومعارف، وثقافات، لا تستوي إلا على حدّ الرفض والاختصام.

مع ذلك، لم يكن في سيرورة «اللقاء اللدود» بين الإسلام والغرب من انقطاع. ظلّت هذه السيرورة، على الرغم من الحروب الضَّروس، والهُدن المتواترة، والتسويات الموقوفة، على نحوٍ ما من التواصل. غير أن هذا التواصل ما كان ليأتي على أجنحة المصادفة. إنه تواصُل ينهض على مفارقة بيِّنة: وجهها الأول، الغزو، والسيطرة. وأما وجهها الثاني فهو التحقّق، والفهم، والتعرَّف، وإعادة صوغ ثنائية الشرق والغرب على صورة أخرى. ولئن كان الوجه الأول هو من طبائع الإمبراطوريات الطامحة، فالوجه الثاني هو ناتجُ عقل الاستشراق وطبائعه.

ما فعلته الإمبراطوريات الطامحة، كان فعلاً مشهوداً في نسيج الزمن العربي الإسلامي كلّه، فلقد كان لأرض الإسلام من كوارثه ما لا يُحصى. أما ما فعله الاستشراق فإنه أنجز من القراءات، وابتنى من الأحكام، ما جعل صورة الإسلام والمسلمين مكسوّة بضبابٍ كثيف. فلو رأينا إلى المشهد الإجمالي لتبيَّن أن من المستشرقين مَن أقبل على حسن الظّن، فكتب في الإسلام وحوله، ما لا شائبةَ فيه. في حين سيمضي بعض آخر منه إلى الحدّ الذي وظّفت فيه أعماله وأبحاثه وقراءاته ضمن أوعية الإمبراطوريات المهيمنة.

الآن... هل ثمّة منطقة وسطى يمكن أن نعثر فيها على استشراق معرفيّ ينظر إلى المجال الإسلامي الفسيح بعين الواقع وشروطه؟... ربّما، نجد ذلك على النحو الذي وجدناه في تجربة رودنسون ومَن يوازيه في النظر إلى الإسلام والشرق من علماء الغرب. لكنّ داء الغَلَبَة لا يلبث أن يعود ليلقي بظلّه على أكثر تلك الإضاءات في مسار الاستشراق العقلاني. ولو عايَنا قليلاً لوجدنا هذا الداء هو نفسه داء الحداثة بامتداداته المعاصرة، ذلك الذي ساد، وشاع، واستبدّ سلطانه سحابةَ القرنَين المنصرمَين.

هذا هو السياق الأكثر حضوراً في جدالية الغرب / الإسلام. سياقٌ لا ينفكّ يحكم عقل الغرب المعاصر، من «الحرب العادلة»، إلى «صِدام الحضارات»، إلى مقولة «الإسلاموفوبيا».

ومهما يكن من تفاوت في مدارج تفكير الغرب حيال الإسلام، فإنّ حاضريّة الإسلام – على ما يقرّر جمعٌ من فلاسفة الغرب المعاصرين – هي السِّمة التي ستؤسّس للعالم صورتَه الآتية. فالإسلام حاضرٌ حضورَ العين في فضاء الغرب اللّامُتناهي. لقد صار جزءاً منه من دون أن يذوي فيه، وقيمةً من قِيَمه من دون أن يضمحلّ فيها. فضلاً عن أنه سيبقى لوناً مائزاً من ألوانه الكبرى.

مهما يكن من تفاوت في مدارج تفكير الغرب حيال الإسلام، فإنّ حاضريّة الإسلام هي السِّمة التي ستؤسّس للعالم صورته الآتية

الإعلام ودورُه في صناعة التطرُّف

حيدر محمد الكعبي*

إنّ انعدام الرقابة ووجود محدّدات على صناعة الخطاب الإعلامي عبر القنوات الإعلامية المختلفة - كالمنابر الخطابية، والفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعي - أصبح من أهمّ الأسباب التي تؤسّس لمنابر إعلامية تزيد من غليان التطرّف على المستوى المحلّي والدولي، لذا فقد انطلقت مناشدات عديدة من أجل تفعيل دور الرقابة على الإعلام الذي يدفع بهذا الاتجاه.

ويُثير أداء وسائل الإعلام، وبشكل خاصّ المرئية منها، تساؤلات عدّة حول دورها في تأجيج عنف الشارع في العديد من دول المنطقة، وإسهامها أيضًا في التحريض ضدّ طائفة أو جماعة ما، لا سيّما خلال تغطية فترات الأزمات السياسية وما بعدها، التي يُلاحظ فيها عدم التزام العديد من القنوات الرسميّة والخاصّة بقواعد المهنية والحيادية.

كما أنّ انتشار الفضائيات والقنوات الخاصّة بشكل كبير أسهم في دخول الإعلام في أزمات سياسية ومجتمعية في المنطقة، في ظلّ مناخ مضطرب، يسمح بالاصطفاف والاصطفاف المضادّ، لا سيما في الدول التي تتعدّد فيها الانتماءات الدينية والأعراق، إذ يلاحظ انخراط الإعلام في محاولات تأجيج الصراعات الطائفية الدينية في تلك الدول، وتتزايد محاولات التحريض والتخوين ضدّ فئة سياسية ما خلال فترة الأزمات السياسية.

ويُعدُّ الإعلام المذهبي المتطرّف أحد أدوات تأجيج الصراع الطائفي في المنطقة، وبصفة خاصّة بعد التوسّع في تأسيس قنوات فضائية تنطلق من أُسس مذهبية ودينية وتعمد إلى تكفير الآخر، ما يزيد من احتقان المشهد على أرض الواقع، كما لم يغب التحريض الطائفي ضدّ الشيعة والمسيحيّين من جانب بعض القنوات المتطرّفة، وكانت نتيجته - في مصر مثلاً - حرق كنائس وتهجير أُسر مسيحية من قرى في الصعيد، وقتل مجموعة من الشيعة في حزيران ٢٠١٣م.

طائفيّة الإعلام في الغرب

لا يقتصر ذلك الجدل المحتدم حول دور الإعلام في تأجيج الصراعات، التي يُمكن وصفها بالطائفية، على وسائل الإعلام المحلية الرسمية والخاصة فقط، وإنما يمتدّ أيضًا إلى وسائل إعلام أجنبيّة، تتبنّى النهج ذاته في الانحياز الواضح لجماعة دون الأخرى، والتحريض ضدّ معارضيها.

> عمدت الولايات المتحدة الأميركية إلى إنشاء فضائيّات متعدّدة اللّغات بهدف استخدامها كسلاح في ساحة الصراعات الإقليمية

ويُمكن القول إنّ ظاهرة الإعلام المتحزّب لطائفة دينية أو الموالي لجماعة سياسية هي ظاهرة عالمية، وليست مقتصرة فقط على منطقة الشرق الأوسط التي تشهد أزمات سياسية عديدة، واحتقانات دينية متعدّدة. فعلى سبيل المثال، ظهر الإعلام الديني المتطرّف في الغرب، وتحديدًا في الولايات المتحدة الأميركية التي شهدت أوّل تجربة لاستخدام القنوات التليفزيونية كمنبر لنشر أفكار دينية معينة، في ظلّ سيطرة اللوبي اليهودي على أكثر المحطّات التليفزيونية الأميركية انتشارًا، وقد ظلّ تأثير هذه القنوات محدودًا داخل الولايات المتحدة الأميركية من خلال التعبير عن مصالح فئة مالكيها، والتأثير في قرارات النُّخبة، إلى أن بدأت مرحلة الإعلام العابر للحدود، حيث واصلت هذه القنوات وغيرها الدور ذاته، وعملت على فتح قنوات متعدّدة اللغات لمخاطبة عدد من الدول، بهدف استخدامها كسلاح في ساحة الصراعات الإقليمية.

وفي هذا السياق، يختلف الخبراء والإعلاميّون حول حدود الرقابة عندما يتعلّق الأمر بما يمكن وصفه بالإعلام الطائفي؛ ورغم أنّ الأصل في مبدأ حرية التعبير هو إشاعته وليس تقييده، يُلاحظ أن أكثر الدول الغربية لا تسمح للحريّات بتجاوز مقتضيات الأمن المجتمعي، وهذا ما يفتقده الفضاء الإعلامي في المنطقة العربية.

(بتصرّف)

* باحث من العراق